الحلقة العاشرة

الأخطل الصغير

obeikandl.com

عرف جيلنا من صبية الخمسينات في القرن العشرين.. الشاعر اللبناني الأشهر: الأخطل الصغير.. أول ما عرفوه من خلال أغنيته الذائعة: «يا ورد مين يشتريك»، التي كان يرددها حتى باعة الأقمشة في الأسواق.. بل وسموا بها نوعاً جديداً من الاقمشة «الجورسيه» عند وصوله إليها، وهي أغنية من الشعر العربي الفصيح: الجميل.. البسيط، الشجي والسهل في مفرداته.. إلا أنها مطعمة ببعض الألفاظ العامية القليلة نزولاً على رغبة مغنيها صديقه الأستاذ محمد عبدالوهاب.. الذي كتبت الأغنية أو القصيدة من أجله، ومن أجل أن يغنيها.. كما أشار ديوانه الوحيد والجميل: «الهوى والشباب».. الذي أخذ عنوانه من أولى قصائده «الهوى والشباب»، والتي اشتهرت هي أيضاً بغناء الأستاذ محمد عبدالوهاب لها في الثلاثينات بعد سنوات من كتابتها في عام ١٩٢٥.. وقبل أن تقوم دار المعارف في القاهرة.. بطباعة الديوان لأول مرة عام ١٩٥٢م.

لقد ردد تلك القصيدة الأغنية.. أو الأغنية القصيدة ملايين المستمعين، وحفظها عشرات الآلاف من القراء والمثقفين.. ولكن

العجيب أن كثيراً من المشتغلين بالعمل السياسي أخذوا يرددون أحد أبياتها فيما بعد دفاعاً عن تقاعسهم في الملمات الوطنية.. وهو البيت الذي يقول:

أأنا العاشق الوحيدُ لتلقي تبعات الهوى على كتفيا

وهو البيت الذي يأتي في ختام ذلك المقطع الرومانسي الجميل:

أيها الخافقِ المعذَّبُ يا قلـ ـبي نَزَحتَ الدموع من مقلتيا
أفحتمٌ عليَّ إرسال دمعي كلما لاح بارقٌ في محيًا
ياحبيبي لأجل عينيك ماألـ ـقى وما أوّل الوشاةُ عَليًا

نعم.. لقد رددوا تلك القصيدة.. كما رددوا من بعد قصيدته الساحرة التي تغنى بها الأستاذ عبدالوهاب أيضاً في أوائل أفلامه السينمائية: «الصبا والجمال».. التي استهلها بقوله:

الصبا والجمالُ ملكُ يديك أيُ تاج أعز من تاجيك
نصب الحسنُ عرشه فسألنا من تراها له.. فدل عليك

واختتمها قائلاً:

قتل الوردُ نفسَه حسدا منـ ـك وألقى دماه في وجنتيك
والفراشات ملَّت الزهر لما حدثتها الأنسامُ عن شفتيك
رفعوا مِنك للجمال مثالاً وانحنوا خُشَّعاً على قدميك

لقد كان لقصائده المغناة تلك.. والتي جاءته من بعدها جماهيرية كاسحة على مستوى الوطن العربي كله كقصيدة:

جفنُه علَّم الغزل ومن العلم ما قتل
فحرقنا نفوسنا في جحيم من القُبل
ونشدنا ولم نزل حلم الحب والشباب
حلم الزهر والندى حلم اللهو والشراب

وكقصيدة «بأبي أنت وأمي» التي تغنت بها الفنانة أسمهان باسم «اسقنيها».. والتي تقول:

اسقنيها بأبي أنت وأمي لا لتجلو الهمَّ عني أنت. همي
املأ الكأس ابتساما وغراما
فلقد نام الندامى والخزامى
زحمَ الصبحُ الظلاما فإلاما
قم ننهنه شفتينا ونذوب مهجتينا رضَى الحبُ علينا يا حبيبي

وأخيراً قصيدة «أغضَاضَةٌ يا روض».. التي لحنها وغناها واختتم بها حياته الفنية الأستاذ فريد الأطرش.. بعد أن عدل عنوانها إلى «عش أنت».. وكما جاء في مطلعها:

عش أنت. إني متُّ بعدك
وأطل إلى ما شئت صدك
كانت بقايا للغرا
م بمهجتي فَخَتَمتُ بَعدك

وعندما مات الشاعر والمغني.. لم تمت تلك القصائد والأغنيات.. بل سافرت عبر القلوب والأزمان حتى تحولت إلى صفحة من أرقى صفحات تراثنا الغنائي الموسيقي.. والفني بصفة عامة.

* * *

لقد عرفنا كما عرف العالم العربي خارج سوريا ولبنان.. فيما بعد، بأن «الأخطل الصغير».. ليس هو الاسم الحقيقي للشاعر.. بل إنه «ثاني» الأسماء التي استعارها ليتخفى بها من ظلم وجبروت الوالي العثماني: جمال باشا السفاح.. الذي حكم سوريا ولبنان بالحديد والنار، وساق الأحرار إلى المشانق والسجون من مطالع القرن العشرين إلى الحرب العالمية الأولى، فقد اختار لنفسه في البدء اسماً حركياً.. هو الشاعر «المتكتم» ، الذي كتب تحته أشد قصائده الوطنية عنفاً وهجوماً على الدولة العثمانية وسفاحها جمال باشا.. إلا أن الرعب السائد في تلك السنوات قضى حتى على إمكانية الاحتفاظ بمدونات تلك القصائد الوطنية في المكاتب أو البيوت، فلم ينجُ منها بعد أن دار الزمن دورته.. إلا ما علق بذاكرة الشاعر.. لينشره في صحيفته «البرق» عندما عاودت صدورها في أعقاب هزيمة الدولة العثمانية والتي تقول بعض أبيات إحدى قصائدها:

أَلْجُـم لسانك ألجم — فالموت للمتكلمْ
لا يسألونك إن قُبضت — أثمت أم لم تأثمْ
فالحبل شرٌ مرحب — والعنق خير مسلّمْ
والسجن أكرم منزلٍ — والنفي أيسر مغنمْ

لكن الشاعر عَدَلَ عن ذلك الاسم الحركي.. واستبدله بـ«الأخطل الصغير» مع قيام أول حكومة عربية في الحجاز بعد نهضة الشريف الحسين وثورته العربية الكبرى في عام ١٩١٦م،

وتوزيره للسيد رشيد رضا، والشيخ فؤاد الخطيب، وعزيز بك المصري، واسكندر عمون.. تأسياً باسم شاعر بني أمية المسيحي الفذ: «الأخطل الكبير» الذي كان يمثل ركناً من أركان دولة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان.. في الدفاع والذود عنها، والذي بلغت به فحولته الشعرية.. أنه إذا كتب قصيدة من تسعين بيتاً.. حذف ستين منها.. واستبقى الثلاثين بيتاً الأفضل والأجود والألصق بموضوع قصيدته.. كما قال عنه الأصفهاني كاتب «الأغاني»، ومع ذلك.. فقد كان بين الأخطلين اختلاف جوهري عميق. فبينما كان الأخطل الكبير الأموي.. معتزاً بنصرانياته.. حفياً بها، كان الأخطل الصغير اللبناني.. مؤمناً بقوميته.. فخوراً بعروبته، فلم تشكل مسيحيته فخراً ولا عائقاً بينه وبين جذور عروبة تربته وأصالتها. إنه في ذلك كأبيه الطبيب الذي ربَّاه على التاريخ العربي والتراث العربي والأدب العربي بشعره وشعرائه. فقد كان اسم والده المسيحي الأرثوذكسي الديانة.. هو: عبدالله، وقد ذهب به هذا الوالد إلى مدرستين وطنيتين هما «الحكمة» و«المزار».. وإلى مدرستين ذات مسميين دينيين هما: «الإكليريكية» و«الفرير» حتى يجيد العربية وتاريخها وآدابها في الأوليين، ويجيد الفرنسية وعلومها في الأخريين، لينتهي من دراسته في عام ١٩٠٦م.. وقد بدت ملامح شاعريته تظهر لكل من حوله في اللغتين: العربية.. إبداعاً. والفرنسية.. ترجمة، ولأنه كان قارئاً للصحافة.. ومتتبعاً لها.. ومولعاً بها وإلى الحد الذي لم تكن تمر فيه «ساعة من ساعات حداثتي إلا وفي يدي جريدة التهمها» كما قال، فلم يطل به التفكير والتأمل فيما يمكن أن تتجه إليه حياته العملية.. فقد

كانت «الصحافة» هي حلمه.. وهي بوصلته التي توجه إليها، وكان من حسن حظه أن أصدر في تلك الفترة اثنان من «بلدياته» هما: «إلياس جدعون» و«نجيب حبيقة».. صحيفة جديدة هي «المصباح» فأخذ يتردد عليها ومعه قصائده التي لاقت من صاحبيها كل عناية واهتمام، وبشاعرها الشاب كل تشجيع وترحيب.. فزاد تعلقه بالصحافة بل وأخذ قراراً مبدئياً بأن يصدر هو الآخر صحيفة أخرى متى ما واتته الظروف..

وبعد عامين.. جاءته الظروف التي كان يتطلع إليها مع إعلان «الدستور العثماني» في عام ١٩٠٨م.. فاستبشر به، كما استبشرت به الولايات المتحدة في الدولة العثمانية.. ورأوا أو توهموا فيه خيراً وباباً يفضي بهم إلى مستقبل أفضل وغد حر سعيد، ليتقدم بطلب إصدار صحيفة «البرق».. وليصدر العدد الأول من جريدته في ذات العام محملاً بفرحته بالدستور الذي صدر مع الاحتفال بعيد جلوس السلطان عبدالحميد.. وبقصيدته الافتتاحية التي بقدر ما رحب فيها بعيد الجلوس بقدر ما روى فيها عن معاناته ومعاناة جيله السابقة.. عندما قال:

عيد الجلوس، وأي ذي أدبِ ... لم تثنه يا عيد من طربِ
بالأمس بَدْرُك كان محتجباً ... واليوم أمسى غير محتجبِ
عيد الجلوس لست أنكر ما ... قد مر منك بسالف الحقبِ
كانت، أجل كانت مباسمنا ... تفترُّ قصد تجنُب الريْبِ
لكنما كانت محاجرنا ... تدمى وكان القلب في لهبِ
تبكي وما تبكي سوى بدِ ... لعبت بمفرقه يدُ النُّوبِ

في صحيفته تلك العربية الروح والآمال والطروحات والتي أسهمت قدر طاقتها في النهضة القومية.. والتي تحول مقرها إلى ناد أدبي للأدباء والشعراء، ومقهى للمثقفين، وفندقاً للقادمين والمسافرين منهم.. كتب أجمل قصائد شبابه الوجدانية والوطنية.. وختمها برائعته الفريدة التي كتبها وهو في التاسعة والعشرين من عمره: «هند وأمها»، التي حفظها عن ظهر قلب شعراء العرب جميعاً.. وأغلب المثقفين في عصره وإلى يومنا هذا، والتي يقول مطلعها:

أتت هند تشكو إلى أمها ... فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها: إن هذا الضحى ... أتاني وقبلني قبلتين
وفرَّ، فلما رآني الدجى ... حباني من شَعْرِه خُصلتين
وما خاف يا أم بل ضمني ... وألقى على مبسمي نجمتين
وذوَّب من لونه سائلاً ... وكحلني منه في المقلتين
وجئت إلى الروض عند الصباح ... لأحجب نفسي عن كل عين
فناداني الروض: يا روضتي ... وهمَّ ليفعل كالأولين

إلى أن ينهيها.. مختتماً هذا الحوار الرائع والفريد بين «هند» و«أمها».. عند قول أمها لها:

فقالت: وقد ضحكت أمها ... وماست من العُجبِ في بُرْدَتَين
عرفتهم واحداً واحداً ... وذقتُ الذي ذقتيه مرتين

كانت معارضته للحكم العثماني.. سبباً رئيسياً في تعطيل صحيفته «البرق» مع بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م..

لكنها عاودت الصدور بعد انتهاء الحرب وقيام دول عربية في العراق وسوريا والأردن وغيرها.. مستبشرة بعهود من الحرية والاستقلال، لكن عهد الفرنسيين والبريطانيين الذي خدعه بداية.. كشف عن نفسه وعن أنيابه سريعاً فلم يكن بأفضل من العهد العثماني، بل كان أسوأ منهما كما سيتضح له فيما بعد ليواصل الأخطل الصغير نضاله.. بقلمه وشعره.. فيأتيه العيد وهو في قمة غليانه فيستقبله قائلاً: «أي عيد مجيد لبلد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه.. من طربوشه إلى حذائه.. غريق في الأجنبية؟ وأي عيد مجيد لبلاد ريشة كتابه وشعرائه.. أجنبية؟ فيا أيها العيد. يا أيها العيد متى نتحرر»؟ ليعود فيسأل الغرب الفرنسي البريطاني.. شعراً:

ليت شعري ماذا جنينا على الغرب
لنُشوى على يديه.. ونُقلى
الأنَّا من أفقنا تطلع الشمس
فتعطي الغذاء حباً وبقَلا
إن يكن ذلك ذنبُنا.. وهو لله
فهلا عاقبتم الله.. هلاَّ!؟

ومع قصيدته «مصرع النسر» التي رثى بها ملك العراق فيصل الأول عند موته، وهاجم فيها الانتدابين الفرنسي والبريطاني.. والتي استهلها قائلاً:

لبست بعدك السوادُ العواصم
واستقلَّت لك الدموعَ المآتم

ودَّ لو يفتديك صقر قريش
بالخوافي من الردى والقوادم
دار هول المصاب حتى احتوى الكون
كما دار بالأصابع.. خاتم

.. أصدرت سلطات الانتداب الفرنسي قرارها بإيقاف الجريدة، ولكن ذلك لم يكسر رمحه وقلمه، ليكتب عند قيام الثورة الفلسطينية الأولى عام ١٩٣٦.. أو ما عرف بـ«ثورة البراق» رائعته الوطنية الخالدة: «يا جهادُ.. صفق المجد له»، والتي بدأها قائلاً:

سائل العليا عنا والزمانا هل خفرنا ذمة منذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا لم تزل تجري سعيراً في دمانا

ثم معاتباً الحلفاء الذين غدروا بآمال العرب.. قائلاً:

أمن العدل لديهم أننا نَزرعُ النصرَ ويجنيه سوانا
كلما لَوَّحت بالذكرى لهم أوسعوا القول طلاءً ودِهَانا
ذنبنا والدهر في صرعته أن وفينا لأخي الودِّ.. وخانا

ثم مخاطباً فلسطين والفلسطينيين.. مؤكداً عهد التحرير العربي لهم.. قائلاً:

يا فلسطينُ التي كدنا لها كَابَدَتْهُ من أسى ننسى أسَانا
نحن يا أختُ على العهد الذي قد رضعناه من المهد كلانا
يثربُ والقدسُ منذ احتلما كعبتانا وهوى العرب هوانا

.. دون أن ينسى سماحته فيما التقى عليه العرب بمسلميهم ومسيحييهم.. عندما قال:

قم إلى الأبطال نلمَسْ جرحهمْ لمسة تَسْبحُ فيه بالطِّيب يدانا
قم نَحُجْ يوماً من العمر لهم هَبْهُ صوم الفصح، هبه رمضانا
إنما الحق الذي ماتوا لهُ حَقُّنَا، نمشي إليه أين كانا

والتي عارضها الشاعر المصري الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل في عام ١٩٦٠م.. وقد تبدلت آنذاك حال العرب عما كانت عليه في منتصف الثلاثينات.. برائعته الوطنية: «يا ربى الفيحاء».. التي تغنت بها أم كلثوم في ذات العام... قائلاً:

لا تسل عنا ولا كيف لقانا
واسأل التاريخ عنا والزمانا
نحن كنا مهجةً واحدةً
ودماً حراً وروحاً وجنانا
بارك الله خطانا وسرت
صيحة الفجر.. فلبينا الآذانا

* * *

كان طبيعياً.. أن تقوده «الصحافة» وتلك الوطنية العربية العالية التي كان عليها إلى «السياسة».. ليخوض أول انتخابات لبنانية جرت في لبنان عام ١٩٢٥.. لكن حظه وحالة التعصب والحزبية التي كان ومايزال عليها كثير من العرب لم تعطه ما كان يتمناه من فرصة خدمة أبناء بلده، ليشعر بتلك الآلام الممضة التي شعر ويشعر بها أمثاله في كل أحقاب التاريخ.. ولكنه وبعد عشرة

أعوام تم انتخابه لرئاسة المجلس البلدي لمدينته: «برج حمود».. فقدم كل ما يستطيعه لأبناء مدينته، ليقدم له عام ١٩٥٤م شعراء لبنان وأدباؤها وكتابها برعاية الحكومة اللبنانية أول احتفالية به وبشعره وأدبه بعد صدور ديوانه «الهوى والشباب»، وكان جميلاً أن تشارك «جمعية الشبان المسلمين» بالقاهرة، لبنان.. في الاحتفاء بتلك المناسبة..

ومع صدور ديوانه الثاني والأخير في عام ١٩٦٠م، والذي تم فيه جمع.. بقية قصائده التي لم تنشر بعنوان «شعر الأخطل الصغير».. كان الأخطل الصغير أو بشارة عبدالله الخوري قد بلغ الخامسة والسبعين عاماً من عمره.. ليتنادى شعراء وأدباء لبنان ثانية.. لإقامة مهرجان أدبي كبير يشترك فيه أدباء وشعراء العالم العربي.. من كل أقطاره.

وهكذا التقى في الرابع من شهر يونيه من عام ١٩٦١م في قاعة «اليونسكو» الشهيرة بعاصمة السحر والجمال بيروت.. أشهر مشاهير شعراء العربية آنذاك من كل الأقطار: عزيز أباظة من مصر، والجواهري من العراق، وأبوريشة من سوريا، والرفاعي من الأردن، والسقاف من الكويت، وسعيد عقل من لبنان، والفيتوري من السودان، والقرشي من المملكة العربية السعودية، وكمال نصر من فلسطين.. تحت رعاية الحكومة اللبنانية ورئيسها شارل الحلو ورئيس وزرائها صائب سلام.. لا ليحتفلوا بالشاعر بشارة الخوري وديوانه الجديد الثاني، ولكن ليبايعوه بإمارة الشعر.. ليكون أميره

الثاني بعد رحيل شوقي، ليموت قرير العين بعد سبع سنوات.. وأصداء صوته تردد:

أيها البلبلُ المغرِّدُ في الليل   على كل أخضر قيَّادِ
غمرتك النجوم بالقُبَلِ السكرى،   فَنَقِّر يا ساحر المنقادِ
فأنا ناي الهوى الذي اخترع المحبة   وأنت الفريد من إنشادي

.. ليبقى ناي الهوى والوطنية والمحبة: أبو عبدالله.. بشارة عبدالله الخوري أو «الأخطل الصغير» معلقاً في سمع الدهور والأزمان.

obeikandl.com